الشعر و الإعلام أيام الرسول صلى الله عليه وسلم

د/ محمد مهداوي - جامعة تلمسان

– مدخل

لقد قام الشعر العربي منذ العصر الجاهلي ، بمتابعة الحدث وتسجيل التاريخ، حيث كانت الأخبار تنقل بين الناس شعرا، وإن خلا هذا الشعر من المقومات أو العناصر الأساسية للإبداع الشعري، كالخيال والإيقاع الداخلي والصور الفنية،، واكتفى بالإيقاع الخارجي، المتمثل في الوزن والقافية ورصف الكلمات لإيصال الخبر[1].

وإذا كانت الرسالة الإعلامية، هي مجموعة الأفكار والاتجاهات والمعلومات والاحساسات، التي يرغب المرسل في إرسالها، فإن اللغة كانت هي الوسيلة الوحيدة وقتئذ لنقل الرسالة، لذلك أضفى عليها المرسل مسحة من الشعرية ،كي تحدث التأثير المطلوب في المتلقى.

أضف إلى ذلك أن "اللغة والإشارات والحركات والإيقاع، كلها وسائل لنقل الرسالة"[2] وهذه الرسائل الإعلامية، هي مجموعة الاخبار والبيانات الحربية ،والمعلومات التي تدور حول الأحداث ، أو المعارك الدائرة بين الطرفين ، تبث لتصل إلى أعداد كبيرة من الناس، يختلفون فيما بينهم من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية، وينتشرون في مناطق متفرقة، ويتميز هذا الأسلوب الشعري في نقل الأخبار إلى الناس، بأنه أسلوب إقناعي تعبيري في الوقت ذاته. أجل لقد كان الشاعر لسان حال القبيلة، يعبر عن غرضها، وينطق بلسانها، شأنه شأن الصحف الرسمية في وقتنا الراهن وكان العرب ذوي نفوس حساسة، وشعور رقيق تقعدهم الكلمة وتقيمهم. وكانوا أهل حافظة، إذا أعجبهم البيت حفظوه وتناقلوه، فيشيع على ألسنتهم كبارا وصغارا، فيتحدثون به في أنديتهم ومجتمعاتهم وأسمارهم، فإذا كان هجوا سقط المهجو فيه، وإذا كان مدحا اشتهر اسم الممدوح[3].

- أهمية الشعر عند العرب

لذلك فإن الشاعر الأعشى لما عزم على الاتصال بالرسول صلى الله عليه وسلم كي يمدحه، وبلغ ذلك أبا سفيان، جمع رجال قريش وقال لهم:"والله لئن أتى محمدا واتبعه ليضرمن عليكم نيران العرب، بشعره، فاجمعوا له مائة من الإبل، ففعلوا فأخذها وانطلق إلى بلده..."[4] فعلت قريش ذلك خشية من شعره وتأثيره على القبائل العربية، فإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أهمية الشعر، وعلى قدرته على التأثير في الناس.

وهذه بعض الأبيات من قصيدة الأعشى:

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وبت كما بات السليم مسهّدا

وما ذاك من عشق النساء وإنما تناسيت قبل اليوم صحبة مهددا

ولكن أرى الدّهر الذي هو خائن إذا أصلحت كفاي عاد فأفسدا

كهولا وشبانا فقدت وثروة فالله هذا الدّهر كيف تردّدا

إلى أن يقول:

نبيا يرى ما لا ترون وذكره أغار لعمري في البلاد وأنجدا[5]

وهذه الرواية التي تناقلتها معظم المصادر التاريخية والأدبية القديمة ، كالأغاني والعقد الفريد، والعمدة، والشعر والشعراء، والسيرة النبوية وغيرها- تنم عن شيء من المبالغة، لأنه ليس من الميسور جمع مائة من الإبل، ومنحها لشاعر كالأعشى حتى لا يمدح النبي صلى الله عليه وسلم، خشية انتشار أمره بين العرب.فالأعشى لو ذهب إلى محمد صلى الله عليه وسلم عن اقتناع وإيمان بدعوة الإسلام، فإن قريشا ما كان لها لتثنيه عن تحقيق هدفه، حتى لو جمعت له مال قريش جميعا، وأن الأعشى إذا مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، فلن يكون مدحه له بأكثر أو أروع من مدح حسان وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وغيرهم!

ولكن الهدف من هذه الرواية، هو انقياد العرب لسحر الكلمة المؤثرة.

- الرسائل الاعلامية

قال عامر ابن الأطنابة وهو من أشراف الخزرج، لما سمع بتهديد ابن الأشهل بقتله ثأرا لمقتل غلام من قضاعة وقد قتله رجل من بني النجار:

ألا من مبلغ الأكفاء عني ... وقد تهدى النصيحة للنصيح
فإنكم وما ترجون شطري ... من القول المزجي والصريح
سيندم بعضكم عجلا عليه ... وما أثر اللسان إلى الجروح
أبت لي عزتي وأبى بلائي ... وأخذي الحمد بالثمن الصريح
وإعطائي على المكروه مالي ... وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحات ... وأحمي كالعرض صحيح
بذى شطب كلون الملح صاف ... ونفس لا تقر على القبيح[6]

إن هذه القصيدة، تتبنى أسلوبا شعريا، ظهر في العصر الجاهلي وشاع، وانتشر بشكل كبير في صدر الإسلام، عندما ظهر الجهاد في سبيل الله، وأخذ المجاهدون يغتربون عن الأهل والوطن في الغزوات، وشرعوا يرسلون برسائلهم الشعرية إلى الأهل والأحبة ليطمئنوهم ويطمئنون عليهم، وهذا الأسلوب هو:(ألا من مبلغ الأكفاء عني أو (ألا من مبلغ عني مغلغلة) أو (يا راكبا بلغنّ، عنّي مغلغلة،...) هكذا كانت الرسائل تصاغ شعرا لسهولة حفظها من قبل الرسول، وسرعة تلقيهامن قبل المرسل إليه، لأنها في غالب الأمر كانت رسائل شفوية. وفي هذا المجال كان الضحاك بن ثابت من بني كعب، يتهم بالنفاق وحب اليهود، فقال فيه حسان بن ثابت يكشف للناس خبثه ونفاقه:

من مبلغ الضحاك أن عروقه ... أَغْيَتْ على الإسلام أن تتمجدا
أتحب يهدان[7] الحجاز ودينهم ... كبد الحمار ولا تحب محمدا
دينا لعمرك لا يوافق ديننا ... مااستن آل بالبدي وخوّدا[8]

وصف الشاعر الضحاك بن ثابت، وبين للناس، كيف أنه فضل دين اليهود على دين محمد صلى الله عليه وسلم، وكشفه للناس على حقيقته، مبينا لهم خبثه ونفاقه وحبه لليهود، ليحذروا منه ويحتاطوا من أفعاله. وقد تأثر حسان في ذلك بالقرآن الكريم الذي تحدث عن المنافقين، و عرّاهم للناس، ليأخذوا حذرهم منهم.

- القرآن والشعر معا

واستمر الشعر في هذا النهج الإعلامي، يفضح، ويحذر القوم من تصرفات هؤلاء المنافقين، فجاء شعر سويد بن صامت عن المنافقين والخبثاء – الذين يضمرون عكس ما يظهرون– أشد وأقوى لهجة وأسلوبا من ذي قبل، إذ قال واصفا حالهم وأفعالهم:

ألا رب من تدعو صديقا ولو ترى مقالته بالغيب ساءك ما يفري[9]
مقالته كالشهد ما كان شاهدا وبالغيب مأثور[10] على ثغره النحر
يسرك باديه وتحت أديمه نميمة غش تبتري[11] عقب الظهر[12]
تبين لك العينان ما هو كاتم من الغل والبغضاء بالنظر الشزر
فرشني[13] بخير طالما قد بريتني[14] فخير الموالي من يريش ولا يبري

.

في هذه الأبيات رسم الشعر[15] بعض صور المنافقين النفسية، وإن كان هذا التصوير لا يرقى إلى تصوير القرآن الكريم ،الذي أفرد لهم سورة كاملة باسم المنافقين ثم زاد في وصفهم وبيان نفوسهم في قوله تعالى:"... يُخَادِعُونَ الله وَالَّذِينَ آمَنُوا، وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونُ. فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ. فَزَادَهُمْ الله مَرَضًا. وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يُكَذِّبُونَ. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ. قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ[16]..."

هكذا وقف الشعر إلى جانب القرآن في جبهة واحدة ، لرد عدوان الكفار وردعهم، قال حسان بن ثابت بعد بدر:

فخبر بالذي لا عيب فيه بصدق غير إخبار الكذوب

بما صنع المليك غداة بدر لنا في المشركين من النصيب

غداة كأن جمعهم حراء بدت أركانه جنح الغروب
فلا قيناهم منا بجمع كأسد الغاب مردان و شيب
بأيديهم صوارم مرهفات وكل مجرب حاظي الكعوب

فغادرنا أبا جهل صريعا وعتبة قد تركنا بالجبوب
وشيبة قد تركنا في رجال ذوي حسب إذا نسبوا نسيب
يناديهم رسول الله لما قذفناهم كباكب في القليب
ألم تجدوا كلامي كان حقا وأمر الله يأخذ بالقلوب
فما نطقوا، ولو نطقوا لقالوا صدقت وكنت ذا رأي مصيب[17]

في هذه القصيدة يتضح بشكل جلي لا لبس فيه، الغاية من هذا الشعر، في قول حسان:(وخبر بالذي لا عيب فيه) فالغاية هي الإخبار ونشر الخبر بين الناس، هو الإعلام بمفهومه المعاصر والمعروف لدى الجميع، إن الإعلام وسيلة في يد السلطة، تذيع عن طريقه ما تراه مناسبا لتحقيق هدفها، على أنه هو الحقيقة، وما سواه يعد باطلا، (بصدق غير إخبار الكذوب) ونحن نعلم إنّ حسانا هو لسان حال الدولة الإسلامية الناشئة، فما يقوله هو الصدق وما يقوله الأعداء هو الباطل، فلا شك إذا أن كل طرف من أطراف هذا الصراع، كان يسعى من خلال هذا الشعر أن ينال من خصمه معنويا وماديا.

- تأثير الشعر الاعلامي في معنويات الخصم

ولا شك أيضا أن تأثير الشعر على الخصم، كان تأثيرا بليغا، ربما فاق ما كانت تحدثه الأسلحة من قتل ودمار في صفوف الأعداء، ولو لا ذلك ما وجدنا هذا الكم الهائل من القصائد الشعرية، التي رافقت الدعوة الإسلامية ،قبل ظهورها على مسرح الحياة، إلى أن تم لها النصر والانتشار.

وفي يوم الرجيع[18] الذي جرت وقائعه سنة ثلاث للهجرة، بعد معركة أحد، قدم على رسول صلى الله عليه وسلم وفد من قبيلتي عضل والقارة، وهما من الهون بن خزيمة بن مدركة، فقالوا: يا رسول الله، إن فينا إسلاما، فابعث معنا نفرا من أصحابك يفقهوننا في الدين، ويقرئوننا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام. فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم نفرا ستة (وقيل عشرة) من أصحابه،... وأمَّر عليهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي. وخرجوا من عند الرسول حتى إذا كانوا على الرجيع غدروا بهم، فاستصرخوا عليهم هذيلا... فأسروهم، .. ثم خرجوا بهم إلى مكة، ليبيعوهم إلى قريش.

فقال حبيب بن عدي، حين بلغه أن القوم قد اجتمعوا لصلبه[19]

لقد جمع الأحزاب حولي وألبوا[20] قبائلهم واستجمعوا كل مجمع

وكلهم مبدي العداوة جاهد عليَّ لأني في وثاق بمضيع

وقد جمعوا أبناءهم ونساءهم وقربت من جذع طويل ممنع

إلى الله أشكو غربتي ثم كربتي وما أرصد [21]الأحزاب لي عند مصرعي

فذا العرش، صبرني على ما يراد لي فقد بضّعوا[22] لحمي وقد ياس[23] مطمعي

وذلك في ذات الا له وإن يشأ يبارك على أوصال شلو [24] ممزع [25]

وقد خيروني الكفر والموت دونه وقد هملت[26] عيناي من غير مجزع

.

إلى أن يقول:

فوالله ما أرجو [27] إذ مت مسلما على أي جنب كان في الله مصرعي

فلست بمبد للعدوّ تخشعا ولا جزعا إني إلى الله مرجعي

لا شك أن هذه القصيدة، التي تنسب إلى خبيب– وقد قالها وهو يرى الموت مقبلا اليه لا محالة– تصور معاناة هذا الصحابي الجليل وهو يستقبل الموت، وقد تضرع إلى الله، طالبا الصبر والقوة لاجتياز هذا الامتحان العسير، الذي وجد فيه نفسه، وهو موقف لا يحسد عليه، فقد اجتمع الناس من حوله، رجالا ونساء وأطفالا، لمشاهدة قتله وتعذيبه، وقد شد وثاقه إلى جذع شجرة! إنه لمنظر مروع حقا. يشبه منظر فيلم حديث، من أفلام الرعب، منظر تتحرك فيه الأحداث متلاحقة، مسرعة لإتمام المنظر بكل تفاصيله وأجزائه، وسواء كانت هذه القصيدة لخبيب أم لغيره، فإن الشاعر استطاع أن يرسم بالكلمات، لوحة معبرة عن الحدث، أصدق تعبير، وربما هدف الشاعر من خلال هذه اللوحة إلى امرين اثنين هما:

أ– أن ينتشر بين الناس خبر خيانة وغدر قبيلة الهون بن خزيمة بن مدركة، والخيانة والغدر عند العرب من أقبح وأسوء الصفات.

ب– إن الإيمان بعقيدة الإسلام، والإخلاص لها، يفجر في الإنسان الشجاعة، وقوة الصبر على المكاره، لأنه يدرك — من خلال مبادئ الإسلام– إن الموت عليه حق، وأنه إذا جاء أجله، فإلى الله مرجعه.

– الاعلام والرثاء

قال حسان يرثي خبيبا[28]

ما بال عينك لا يراق مدمعها سحا على الصدر مثل اللؤلؤ القلق
على حبيب فتى الفتيان قد علموا لا فشل حين تلقاه ولا نزق
فاذهب خبيب جزاك الله طيبة وجنة الخلد عند الحور في الرفق .

وقال حسان في قصيدة أخرى[29]

يا عين جودي بدمع منك منسكب صقرا وابكي خبيبا مع الفتيان لم يؤب سمح
توسط في الأنصار منصبه قد هاج السجية محضا غير مؤتشب[30] إذ قيل
عيني على علات عبرتها يأيها الراكب نص إلى جذع من الخشب أبلغ لديك
الغادي لطيبته بنى فكهبه إن وعيدا ليس بالكذب محلو بها الصاب[31]
الحرب قد لقحت فيها أسود بني النجار إذ تمرى[32] لمحتلب شهب الأسنة في
يقدمهم . معصوصب[33] لجب[34]

وبعد أن يبكي خبيبا، ويمدحه، ويصف سجاياه، يهجو الذين غدروا به، ليفضحهم أمام الناس، ويكشف فعلتهم وخساستهم، فيقول حسان[35].

أبلغ بني عمرو بأن أخاهم شراه امرؤ قد كان للغدر لازما
شراه زهير بن الأغر وجامع وكانا جميعا يركبان المحارما
أجرتم فلما أن أجرتم غدرتم وكنتم بأكناف الرجيع لها ذما
فليت خبيبا لم تخنه أمانة وليت خبيبا كان بالقوم عالما

وهكذا يمضى الشعر مسجلا الأحداث تسجيلا حيا، واقعيا، وكأن حديث العرب –وقتئذ– كان كله شعرا، فالشعر كان أداة طيّعة في يد الشاعر، يصوغ به ما يشاء من الأفكار، والأوصاف، والصور، وكأن المتلقى –أيضا– لم يكن يعبأ بالخبر إلا إذا كان شعرا، وإذا صح هذا الافتراض، فقد يكون ذلك علامة من علامات التطور الحضاري،

والاجتماعي، والثقافي والأدبي بشكل عام، أو على النقيض من ذلك، إذا صح قول مؤرخي الأدب العربي القدامى، من أن الإنسان العربي بدأ حديثه شعرا ثم تطور شيئا، فشيئا إلى أن وصل إلى النثر. وهذا الافتراض يبدو أضعف من الأول، لأن الشعر محكوم بقواعد، لا بد على الشاعرمن مراعاتها ،كالوزن والقافية وما إلى ذلك. وهذا يتطلب تعليما ومراسا، بينما يخلو النثر من الشروط.

ولشدة تأثر المسلمين لهذا الحدث المؤسف، الذي أودى بحياة نفر من المسلمين، بسبب خدعة ملونة بالخبث والنفاق والمكر والحيلة، قيلت عشرات القصائد في فضح قبيلة هذيل، لما قامت به من فعل شنيع، ليصبح خبرها على كل لسان.

– الاعلام والهجاء

فها هو حسان يعود مرة أخرى إلى الموضوع، فيقول[36]:

إن سرك الغدر صرفا لا مزاج له فأت الرجيع فسل عن دار لحيان[37]

قوم تواصوا بأكل الجار بينهم فخيرهم رجلا والتيس مثلان

لو ينطق التيس ذوالخصيين وسطهم لكان ذا شرف فيهم وذا شان[38]

و قال أيضا:

سألت هذيل رسول الله فاحشة ضلت هذيل بما سألت ولم تصب[39]

سألوا رسولهم ما ليس معطيهم حتى الممات وكانوا سبة العرب

ولن ترى هديل داعيا أبدا يدعو لمكرمة عن منزل الحرب

لقد أرادوا إحلال الفحش ويحهم وأن يحلوا حراما ما كان في الكتب[40]

فقد هجا حسان هذيلا بقصائد كثيرة، فأقذع في سبها وهجائها، فلم يترك لها مكرمة واحدة، حتى صارت محل سخرية واستهزاء لدى القبائل الأخرى، ولم تعد أية قبيلة تثق في أفرادها، أو تتحالف معها.

كان أبو أحمد بن جحش بن رئاب، قد هاجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما علم أبو سفيان خبر هجرته، تصرف في داره فباعها لعمرو بن علقمة انتقاما منه، فسجل الشعر هذه الحادثة ،ليبين للناس ما قام به أبو سفيان بن حرب، ويفضحه، ويشهرّ به، ليستنكر الناس فعلته، ويندوا بأفعاله الدنيئة، حيث قال أحمد بن جحش واصفا ذلك:

أبلغ أبا سفيان عن أمر عواقبه ندامة
دار ابن عمك بعتها تقضي بها عنك الغرامة
وحليفكم بالله رب الناس مجتهد القسامة
إذهب بها، إذهب بها طوقتها طوق الحمامة[41]

وبعد فتح مكة، عزم الرسول صلى الله عليه وسلم على غزو هوازن. وقبيل وصوله إليها بأيام، أرسل العباس بن مرداس السلمي، رسالة إعلامية ترهيبية، يخبرهم فيها عن ضخامة جيش المسلمين، الذي انضمّت إليه معظم القبائل العربية، وذلك ليثبط هممهم، ويبين لهم أنه من العبث محاولة المواجهة؛ فقال[42]:

أبلغ هوازن أعلاها و أسفلها مني رسالة نصيح فيها تبيان
إني أظن رسول الله صابحكم فيهم جيشا له في فضاء الأرض أركان
سليم أخوكم غير تاركككم وفي والمسلمون عباد الله غسان
عضادته اليمنى بنو أسد تكاد والأجربان بنو عبس وذبيان وفي
ترجف منه الأرض رهبة مقدمة أوس وعثمان[43]

.

فهو يستعمل أسلوب الاحتمال، ليكون أكثر تأثيرا، يقدم النصيحة ويظن أن جيش الرسول صلى الله عليه وسلم صابحهم، فعليهم أن يأخذوا حذرهم، خاصة وأن هذا الجيش، يضم في صفوفه مجموعة من القبائل العربية المعروفة.

وبهذا الدور الذي قام به الشعر، في نشر الخبر، وإيصاله إلى الناس، عن طريق الرواية الشفوية أو المكتوبة، يكون قد أنجز مهمة إعلامية، لا تقل أهمية عن دور وسائل الإعلام المختلفة في وقتنا الراهن.

الإحالات

1- المدخل إلى وسائل الإعلام د.عبد العزيز شرف، دار الكتاب اللبناني ط1 عام 80 ص9

2- المرجع السابق ص 42.

3- جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية منشورات دار مكتبة الحياة بيروت ط عام 1983 ج1 ص88

4- المرجع نفسه ج1 ص89 وفي البداية والنهاية ج3 ص 101-102 وفي السيرة النبوية لابن هشام ج2 ص25-28

5- السيرة النبوية لابن هشام، تعليق مصطفى السقا وآخرين ج2 ص26 وفي البداية والنهاية لابن كثير ج3 ص 101 وفي ديوان الأعشى، دار صادر بيروت ص 45،46

6- الكامل في التاريخ لابن الأثير دار الكتاب العربي بيروت ط3 عام 1980، ج2 ص 67

7- يهدان = يقصد اليهود.

8 السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ج2 ص124 أو في الديوان يشرح البرقوقي ص 200-201

9- يفى = يختلف

10- المأثور= السيف الموشى

11- تبترى = تقطع

12- عقب الظهر= عصبه

13- فراشه= قواه

14- براه= أضعفه

15- السيرة النبوية،لابن هشام تحقيق إبراهيم السقا وآخرين ج2 ص 67

16- سورة البقرة الآيات 8،9،10،11

17- السيرة النبوية تحقيق طه عبد الرؤوف ج2 ص 205 وديوان حسان بشرح البرقوقي ص 68 في البيت 3 (جنح الغيوب) و(فوافيناهم) بدل فلاقيناهم

18- الرجيع = ماء لهذيل بناحية الحجاز.

19-السيرة النبوية: تحقيق مصطفى السقاو... ج 3 ص178-185

20- ألبوا = جمعوا، يقال ألبت القوم على فلان: إذا جمعتهم عليه

21- أرصد = أعد

22- يضعوا = قطعوا

23- ياس= لغة في يئيس

24- الشلو= البقية

25- الممزع = المقطع

26- هملت = سال دمعها

27- ما أرجو= ما أخاف

28- السيرة النبوية المرجع السابق ج3 ص186 وفي الديوان يشرح البرقوقي ص 343

29- السيرة النبوية م، س وفي الديوان نشرح البروقوقي ص 106-107 والسيرة النبوية، المرجع السابق ج3 ص 186.

30- المؤتشب = المختلط

31- الصاب = العلقم

32- تمرى = تمسح-

33- كهيبة = من الكهيبة، وهي الغبرة ويعنى السفلة من الناس ، المعصوصب = الجيش الكثير

34- لقحت = ازداد شرها ، اللجب = الكثير الأصوات

35- المرجع نفسه ص 188 وفي الديوان بشرح البرقوقي ص 453

36- لحيان= هو ابن هذيل بن مركة بن إلياس

37- السيرة النبوية لابن هشام تعليق طه ج3 ص 189 وفي شرح البرقوقي ص469

38- يشير حسان إلى ما سألت هذيل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أرادوا الإسلام أن يحل لهم الزنا، فعيرهم بذلك

39- انظر الديوان بشرح البرقوقي ص 120 وقد ورد فيه البيت الأول فقط

40- الديوان : شرح البرقوقي ص 469

41- السيرة النبوية لابن هشام تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ج2 ص105

42- السيرة النبوية تحقيق مصطفى عبد الواحد دار المعرفة ط عام 1982 بيروت مج 3 ص 615

43- أوس وعثمان = يعني قبيلة مزينة